

السخرية عند الجاحظ

الدكتور/مختار قطش

قسم اللغة العربية وآدابها

المركز الجامعي تبسة

ملخص

يعد فن

السخرية من أرقى الفنون الأدبية في العصر العباسي كما يعد الجاحظ من كبار الأدباء الذين كتبوا في هذا الفن بل لقد ارتقى الجاحظ بفن السخرية ووسع من دائرتها وأسهم في بناء خصائصها إسهاما واضحا.

RESUME

L'ironie est considérée comme l'un des arts littéraires les plus avancés durant l'ère abbasside. tout comme aljahidh qui est compté parmi les plus grands hommes de lettres, qui se sont investis dans l'art de l'ironie, même plus ; il a contribué au développement de cet art, et en a fait un genre presque indépendant, il a aussi participé amplement à établir ses caractéristiques distinctives.

كان فن السخرية في عصر الجاحظ تطورا طبيعيا لفن الهجاء القديم، كما كان استجابة للطابع الثقافي للعصر المؤسس على النثر، و ما للنثر من علاقة بالثقافة العقلية. و من ثم كان فن السخرية المعبر الحقيقي عن المشكلات السياسية و الاجتماعية والثقافية الجديدة. و هو ما لم يستطع الشعر التعبير عنه إلا في حدود ضيقة.

و إن أبدع فيها أصحابها. وإلى جانب هذه الأسباب هناك شخصية الجاحظ الميالة إلى السخرية روحا اعتزالية، و إلى التفكه أسلوبا كتابيا¹.

و من مواصفات السخرية عنده أنها موضوعية ليست ذاتية² أي أن الجاحظ لم يسخر لرغبة ذاتية تشفيا من غيره. بل كانت سخريته تنطلق من الشيء المسخور منه بوصفه ظاهرة

خلقية أو اجتماعية أو سياسية أو فكرية، ثم الربط بين هذه الظاهرة و التفسير العلمي في أكثر الأحيان.

و يعود تفوق الجاحظ في فن السخرية إلى مقدرته الفائقة في الكشف عن المفارقات التي عرفها المجتمع نتيجة القيم التي سادته، و تباينت في مستوياتها. فكان لأعلاها تلك القيم التي جاء بها الإسلام، و أدناها تلك القيم المادية التي أفرزتها حركية المجتمع بمختلف مشاربها المتباينة³.

و لذلك لولا الواقع النظري للقيم و المثل التي جاء بها الإسلام - وقد بلغ الناس في طلبها درجة عالية- و الواقع المادي الذي نتج عن حركية مذهلة للمجتمع ما كان لهذه المفارقات أن تظهر، وأن يتعرفها الجاحظ بهذه الكيفية التي رصدها بها. ولذلك كان لابد من الاعتناء بالقوالب المادية للقيم في أبسط صورها، ثم التغلغل في البعد النفسي ليعمق القيم في حد ذاتها. و من ثم صب الجاحظ سخريته في قوالب من التصوير المادي توحى بحالات نفسية كثيرة.

و الشخصيات التي كشف عنها الجاحظ، سواء أكانت موصوفة أم ممثلة في بعض الأحيان، تتقاطع في عالم ادعائي هدف الجاحظ إلى كشف ملامحها و بواطنها ليبرز في سلوكها الزيف الذي سلكوه، و التكلف الذي تمجوه، و الادعاء الذي طلبوه.

و هذه الشخصيات لو لم تكن مدعية ما كانت تصلح لسخرية الجاحظ. والادعاءات آتية من سيطرة الطابع العربي الإسلامي وسيادة قيمه في مجالات الحياة المتنوعة، مما جعل التمسك بهذه القيم أمراً ضرورياً و سياقاً اجتماعياً يطلبه الجميع.

و لما كانت القيم المادية التي تنتفي مع روح الإسلام قرينة المنال فقد سيطرت على واقع الحياة، مما جعل العصر يعرف نوعين من الواقع: واقع حقيقي تمارس فيه قيم أقل ما يقال عنها أنها من وحي تيارات دخيلة على المجتمع العباسي. و واقع نظري يحوي القيم العربية الإسلامية ولو ادعاء في بعض الأحيان.

عندما نعتد السخرية جنساً أدبياً ، لصيقاً بالعصر العباسي عامة وعصر الجاحظ خاصة في إبراز طابع العصر الثقافي؛ من حيث طبيعة القيم والمثل. نجد أن دواعي السخرية تلك الظواهر

السلوكية التي تعددت عند الفرد بتعدد المشارب الثقافية عنده، وتباينت في قيمها تباين الثقافات نفسها.

ولكن هذا التباين وهذا التنوع ركن في الأخير إلى معيار القيم والمثل التي تحملها روح الحضارة العربية. ومن ثم فالباحث في القيم يمكن أن يجد ضالته في السخرية، الموزعة بين الواقعين المذكورين: الواقع الحقيقي و الواقع النظري.

وفي الحالين فإن سلوك الفرد موضوع السخرية قيس بمعيار القيم والمثل العربية الإسلامية. ومن ثم فإن تعدد الثقافات وتباين قيمها غير كافيين لأن يؤسس لظاهرة السخرية ، وإنما السلوك الناتج عن الجمع بين قيمتين متناقضتين، قياسا بمعيار القيمة في بعديها العربي والإسلامي، هو الذي وفر هذا الركام الكمي والنوعي من السخرية عند الجاحظ.

ولعل العقلية العربية التي استطاعت استيعاب الفكر الجديد، ومارفدتها به الحضارات الأخرى ومحكمة تلك الحضارات بمقياس الحضارة الإسلامية، حدثان كفيلا أن يبرز اختلافهما و تناقضا بين الثقافة العربية و الثقافات الأخرى.

و السخرية مرتبطة بالحياة الأرستقراطية منشأ و الحياة الاجتماعية وظيفة حينما تعمل على تعديل و تحويل سلوك الفرد.

و لعل الجاحظ من أبرز من اتكؤوا على هذه القيمة و اعتمدوها في أدبهم و هذا ليس بغريب عن رجل معتزلي يؤمن بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وكان قد سما به عقله المستنير وروحه المرحّة، حينما وظف السخرية لقيمة اجتماعية هادفة فضلا عن توظيفها لخدمة غرض مذهبي ديني.

و هذا السمو العقلي و هذه الروح المرحّة عند الجاحظ ارتقيا به إلى درجة " جعلته رجلا سهل الجانب، لين الحاشية، محبا للناس عطوفا عليهم، و لا يضيق بهم

و لا يترحم من عيوبهم، و لا يسخط عليهم. و إنما هم في مختلف أشكالهم، و شتى مسالكهم، صورة من هذه الحياة التي يحبها. وأمثلة من الإنسانية التي يقدرها و يعطف عليها"⁴ حتى غدت سخريته سخرية مرحة غير لاذعة، بناءة غير هدامة، يعامل شخصياته بكل لين و محبة، يميل بقرائه إلى الضحك و السرور، يسخر للإمتاع، وينقد للبناء. خاصة وقد اجتمع لدى صاحبنا

روح المعتزلة في تقديس العقل وحب الجدل والمناظرة بوصفهما قيمتين من وحي العصر " حتى إنه كان يستطيع أن يتمثل الآراء المختلفة، ووجوه النظر إليها بدرجة واحدة تقريباً"⁵

قال الجاحظ: "ألفت كتاباً في المعلمين، وما هم عليه من التغفل، ثم رجعت عن ذلك وعزمت تقطيع ذلك الكتاب. فدخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد علي أحسن رد. ورحب بي فجلست عنده وباحثته في القرآن فإذا هو ماهر فيه. ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول فإذا هو كامل الآداب فقلت هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب (...). فكنت أختلف إليه و أزوره. فجئت يوماً لزيارته، فإذا الكتاب مغلق، ولم أجده. فسألت عنه، فقبل مات له ميت، فحزن عليه، وجلس في بيته للعزاء، فذهبت إلى بيته، وطرقت الباب فخرجت إلي جارية وقالت: ما تريد؟ قلت: سيدك. فدخلت وخرجت وقالت: باسم الله.

فدخلت إليه وإذا به جالس فقلت: عظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. كل نفس ذائقة الموت، فعليكم بالصبر. ثم قلت له: هل هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا. قلت: فوالدك. قال: لا. قلت: فزوجك. قال: لا. قلت: وما هو منك؟ قال: حبيبي. فقلت في نفسي (هذه أول المناحس) فقلت سبحان الله النساء كثير، و ستجد غيرها فقال: أتظن إني رأيتها؟ قلت: (وهذه منحسة ثانية) ثم قلت: وكيف عشقت و لم تر. فقال: اعلم إني كنت جالساً في هذا المكان وأنا انظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه برد و هو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة

لا تأخذين فؤادي تلعبين به

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر: فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه و هو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو

فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها. وأغلقت المكتب و جلست في الدار. فقلت يا هذا. إني كنت قد ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين. وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه. والآن قد قويت عزمي على إبقائه. و أول من أبدأ بك إن شاء الله"⁶.

من خلال قراءتنا لهذه الحكاية، يمكن أن نقف على مسألة ذات أهمية قصوى تتمثل في مدى ترشيح الحكاية نفسها إلى أن تكون مصدر تندر و تفكه عند الجاحظ. لمحاورة هذه المسألة، واستنطاق ماهيتها يجدر بنا أن نقف على مهنة التعليم في عهد الجاحظ. لاشك أنها كانت مهنة شائعة بين طبقات الناس⁷. و هو أمر مألوف في عصر قائم على العلم و المعرفة. و هي نفسها مهنة تجمع بين الأدب و العلم.

إن شيوع العلم و المعرفة بين أفراد المجتمع العباسي نجم عنه تباين في عملية التعليم نفسها، حين اتضحت المفارقات الموحية بالتندر، خاصة و أنه يفترض نظرياً- على الأقل- في من يتحملون عبء هذه المهمة، أن يجيدوا علوم العصر التي كانت علوماً متطورة، ذات حركية سريعة يمكن أن تتخلف عن ركبها بعض الفئات الاجتماعية و منها فئة معلمي الصبيان الذين وصفهم الجاحظ بالحمق: "الحمق في الحاكاة و المعلمين و الغزالين"⁸ ثم ينتقص من حمق الحاكاة و الغزالين، باعتبار الحمق عند هاتين الفئتين غير قولي بينما الحمق عند المعلمين يكون قولياً. "و الحاكاة أقل وأسقط من أن يقال لها حمقى و كذلك الغزالون"⁹ ثم يعلل لذلك بقوله: "لأن الأحمق هو الذي يتكلم بالصواب الجيد، ثم يجيء بخطأ فاحش. و الحائك ليس عنده صواب جيد في فعال و لا مقال إلا أن يجعل جودة الحياكة من هذا الباب، و ليس هو من هذا في شيء"¹⁰.

و إذا كانت هذه حال طبقة معلمي الكتاب فإن طبقة معلمي أبناء الخلفاء و الأمراء يكفي أن يمثلها الجاحظ نفسه الذي رشح إلى مثل هذه الوظيفة. و الحقيقة أن طبقة من المعلمين المستنيرين فكراً كانت قد نهضت بعلوم العصر "على أن أكثر هذه العلوم انطلقت في أساسها من الدراسات الدينية و القرآنية.

فالقرآن و تفسيره لم يكن منطلقاً أول للدراسات الفقهية و الشرعية فحسب. بل هو المنطلق كذلك للدراسات العقلية التي بدأت بعلم الكلام و انتهت بالفلسفة الإسلامية فضلاً عن جميع أنماط الدراسات اللغوية و البلاغية والأدبية"¹¹ معنى ذلك أن فضاء هذه الدراسات كان رحباً، وكان قد اكتسى البعد الروحي و المثالي في آن. مما يوفر لهذه العلوم البعدين العربي والإسلامي على السواء؛ ليغدو التمسك بها في الواقع النظري و البعد عنها في الواقع الحقيقي

ضربا من الجمع بين المتناقضين المفضي إلى إثارة العجب، ليصبح تعقب السلوك اللغوي و الحركي و الهيئة مدعاة للتندر، وهو ما فعله الجاحظ مع معلمه.

والادعاء في الغالب هو تعويض واه لنقص في الأمر المدعى فيه، أو لفقدانه أصلا. كما هو الشأن في مدعي الكرم و هو بخيل، أو مدعي العلم و هو جاهل" وهكذا صارت الحكايات و الطرائف تصور دقائق مواقف الجماعات المختلفة، وتعكس الصراعات بصورة غير مباشرة و بتلميحات خفية"¹².

في النص ازدواجية في الشخصية بما يظهرها غير سوية و مترنة، نتيجة للتباين الحاصل في سلوكها الذي يخرجها عن المألوف لتصبح شخصية مدعية توفر العجب من بابه الواسع، فهي من جهة تواكب الحركية الثقافية في أرقى صورها هيئة و سلوكا أخلاقيا قوليا اجتماعيا و فنيا في شتى أنواع المعرفة التي تصب في مجرى قيم يطلبه الجاحظ بشتى الوسائل خاصة و قد أقر لصاحبه بذلك بعد طول معاناة و تحريب، و من جهة أخرى تسلك سلوكا مضحكا.

إن الارتقاء ببناء الحكاية بما يطور الحدث، و يظهر الشخصية النامية على حقيقتها. هو نفسه الارتقاء بالقيم التي يحملها المعلم إلى ضرب من المثالية التي سيقابلها بواقع مغاير لها، و يهدم بذلك بناء محكما و عملا ناضجا أنجزه المعلم بكل براعة و شهد له الجاحظ بذلك حين الإنجاز. ذلك أن القيم التي حملها المعلم في بداية الأمر، كفيلة بأن تجعله مؤدبا من طراز عال- و هي ليست مظاهر سلوكية عارضة. بل شهد لها الجاحظ نفسه بالطبع و الدربة و بما غير الجاحظ سلوك المعلم في مرحلته الثانية فوجده شاذا عن الأول. لقد عشق من لم ير من خلال وصف في لحالة العاشق.

و حزن لتقاطع اسم أم عمرو في غرضي الغزل و الرثاء. و إذا كان عشق المعلم نظريا فإن حزنه كان عمليا تعطلت بموجبه وظيفته الاجتماعية و جلس لتلقي العزاء.

و إذا كان البيتان الغزليان مصدر عشق، وبيت الرثاء مصدر حزن، فإن تجسيد المعلم لهذين المعنيين كان مصدر عجب و مبعث فكاهة دالين على حماقة تتبع الكاتب خطواتها و رصد مسارها و نفخ فيها من روحه الفنية الكثير.

فعشق المعلم من لم ير حمق، و حزنه على من عشقها بهذه الكيفية حمق ثان.

و يمكن أن نستوحي رأيا جادا للجاحظ من خلال هزله هذا، و هو أن الشعر وظف في غير محله، حينما ألحق اضطرابا بسوية المعلم، والأصل أن يعيد السوية بعد الاضطراب ليزيد فيها اتزاناً.

فالكلام المتقدم عن المعلم دال على سويته العقلية و الوجدانية على السواء. هيئة حسنة خلق حسن، مهارة في مباحث القرآن، كامل الآداب في الفقه و النحو و علم الكلام. و الحوار بين الجاحظ و المعلم أسس له بهذه العلوم بشكل أو بآخر، و لكن الخروج عنها إلى وجدان مضطرب، فلت من زمام العقل فأوقعه في سلوك غير متجانس مع ما عرف به هو ممكن الانحراف.

و هكذا جمع المعلم بين المتناقضات الدالة على حمق كبير. و كان الجاحظ قد رصده بناء على سلوك قولي من وحي علوم العصر، و سلوك وجداني مضطرب عطل الوظيفة المهنية بطريقة تثير العجب.

و لعل روح العصر العربية الإسلامية هي التي كانت تقوم بدور المعدل للقيم، فتندر بكل من خرج عن طبيعتها بالعقاب و الجزاء و هو الأمر المؤلف في اكتساب السلوك السوي، حتى في أرقى مظاهره عندما يخضع لسيكولوجية التعليم، و في الوقت نفسه نجد أن بعض التيارات المعارضة تنال من حين لآخر من هذا الطابع، وهذه الروح العربيين الإسلاميين فتتندر ببعض القيم العربية، قديمها و حديثها.

و التفكه سلاح ذو حدين فهو في متناول العامة لتعبر به عن مواقفها المختلفة، خاصة عندما تشتد بها الحال. و تنفسي المظالم الاجتماعية. كما نجد التفكه عند الخاصة

- كما هو الشأن عند الجاحظ الذي يعد أحد كبار المعتزلة، الذين تبنا مثل هذه الوسيلة العربية في أصلها، الإسلامية في روحها - مذهبا معتزليا و منهجا كتابيا.

و الجاحظ عندما اعتمد الفكاهة وسيلة تعليمية و تثقيفية، فإنه كشف عن خلل أصاب المجتمع، ليصلحه و يبلغ به نموذجا حيويا تنباه. و من ثم فالتفكه عند الرجل ناتج عن وعي بمشكلات المجتمع، وليس عن شعور مكبوت يعبر عنه خفية أو لا إراديا. ثم إن التفكه الأدبي الذي استقى بعض معانيه من الأوساط الشعبية كان يكسوه طابعا أدبيا مميزا يترع إلى الواقعية، مفعما بالطبيعية. ولذلك جاء في أكثره خاليا من التورية اللفظية الجافة .

الهوامش

- 1- مختار قطش: الحكاية في أدب الجاحظ مخطوط ماجستير المكتبة المركزية جامعة منتوري قسنطينة - قسم الماجستير -
- 2- المرجع نفسه
- 3- المرجع نفسه
- 4- طه الجاجري: مقدمة كتاب البخلاء دار المعارف مصر 1958 ص 54
- 5- المرجع السابق ص 35
- 6- شهاب الدين الأبهسي: المستطرف في كل فن مستظرف مطبعة الحلبي و أولاده مصر 1952-271/2
- 7- وديعة طه: نجم الفكاهة في الأدب العباسي مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويت ديسمبر 1982 ص 17
- 8- الجاحظ البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام محمد هارون دار الفكر الطبعة الثالثة مصر ص 1969 - 249/1
- 9- المصدر السابق
- 10- المصدر نفسه
- 11- وديعة طه نجم: الفكاهة في الأدب العباسي ص 23
- 12- المرجع السابق ص 29